القرآن واللغة العربية

للدكتور يوسف حسن نوفل

كان القرآن الكريم كلا متماسكا يفسر بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا وكان الرسول الكريم يدعو لابن عباس : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) (البداية والنهاية ٨ :٢٩٦، ٢٩٧) .

ووعد الله سبحانه بحفظ قرآنه حفظ اللغة العربية وجعلها تنجو من المصير الذي لقيته لغات أخري مثل اللاتينية أو السنسكريتية حيث صارت لغات اثرية غير مستعملة .

وارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم

جعلنا نتمسك لها بالفصاحة كما تمسك أباؤنا واجدادنا ، كما جعل كثيرا من مجالات الدراسة وميادينها تتسع وتتشعب حول تلك اللغة خدمة لعنوانها المقدس القرآن الكريم ، فبها نقرأه حق القراءة وبها نفهمه حق الفهم وبها نفسره حق التفسير ، وبها تدور حوله دراسات ودراسات .

وارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم القي ظلاله على الشعر العربي القديم الذي هو ديوان العرب وذلك أن الشعر العربي القديم يسهم في بعض الأحيان في تقديم العون في تفسير

الحلقة الثانية

بعض معاني القرآن الكريم والفاظه يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عباس :

« الشعر ديوان العرب ، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي نزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها والتمسنا معرفة ذلك منه » (الاتقان للسيوطي ١ ــ ١١٩) .

وهاهو ابو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) يقول :

« ولولا ما بالناس من الحاجة الى معرفة لغة العرب والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والأئمة الماضين لبطل الشعر وانقرض ذكر الشعراء ولعفا الدهر على آثارهم ونسي الناس أيامهم » (الزينة للرازي ١ ــ ١١٦) .

اللغة الدينية والدنيوية :

وقد اكتسبت اللغة العربية قدسية التعبير عن وحي السماء في كتاب الله المبين فمنحها من جلاله وسلطانه وعظمته ، فكانت لغة للدين كما هي لغة للدنيا ، وانتشرت في أصقاع الأرض شرقا وغربا تدرس في أصبهان وشيراز ودمشق وبغداد ، ويشدوبها لسان في قرطبة والحمراء كما يشدوبها آخر في القاهرة أو القيروان ، فتم لها الانتشار من اواسط الهند شرقا الى جبل طارق غربا ، ومن البحر الأسود شمالا الى المحيط الهندي جنوبا فكانت اسبق لغة عالمية قبل أن يفكر المحدثون في فكرة اللغة العالمية .

وقد استمدت اللغة العربية اصالتها الدنيوية من ارتباطها بالقرآن الكريم الذي يقرر أن مصدر كل اجزاء العلم هو علم الله ولقد اشار فيمعرض حديثه الى الآيات الآتية : ــ

(ولايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) البقرة / ٢٥٥ . **(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما)** غافر / ٧ **(وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وماتسقط من ورقة الا يعلمها ولاحبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس الا في كتاب مبين)** • الأنعام / ٥٩ •

وحين نرد العلم الى معناه الاصطلاحي وهو النبأ الصادق

تخلص من ذلك الى ثلاثة انواع من العلم يقدمها القرآن الكريم هي :

اولا : علم الدين وفيه يقول الله على لسان ابراهيم لأبيه : **ياأبت اني قد جاءني من العلم مالم يأتك)** .مريم / ٤٣ .

ثانيا : علم الانسان وعلم التاريخ والاجتماع يقول الله تعالى :

(الم ياتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم)التغابن/٥

ثالثا : علم الاشياءوهوعن الطبيعة ومفرداتها ، يقول الله تعالى :

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) غافر /٨٣ .

وقال : **(وجعلنا من الماء كل شيء حي)** الأنبياء/٣٠ .

فبهذه الأبعاد المتكاملة لكلمة العلم دينا واجتماعا وعلما يتبين أن العلم لايتجزأ ولهذا وضع القرآن الكريم في مستهل الآيات الأولى من القرآن الكريم منهاجا واضحا للحقيقة قال تعالى:

(اقرأ باسم ربك الذي خلق .خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) : العلق ١ ــ ٥

وكون اللغة العربية لغة دنيوية ينبع من كونها لغة دينية منذ آدم عليه السلام ، حتى لسان التعبيرعن الحق، ولسان توجيه الانسان حتى كانت ــ بحق ــ أقدم صور التعبير عن العربي منذ (يعرب بن قحطان) ابى العرب العاربة التى هى اقدم من العرب المستعربة من ذرية ابراهيم عليه السلام (٢٠٠٠ قبل الميلاد) الذين رجعوا الى وطنهم الأول ليعودوا الى قوميتهم العربية،هاهو أبراهيم عليه السلام وولده يتجه الى الله قائلا :

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) الى أن يقول جل شأنه : **(ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم)** البقرة / ١٢٨ــ ١٢٩ ، ففى الآية الكريمة كلمة (فيهم)والضمير هنا يعود على العربى، وكلمة (منهم) والضمير يعود على العرب وقوم محمد صلى الله عليه وسلم وكلمتا (آياتك) و (الكتاب) والمقصود بهما القرآن الكريم ومن هنا نصل الى حقيقة لايمكن نكرانها وهى أن القرآن الكريم جعل اللغة العربية تمارس مهمتها التى هيأها الله لها في مجالات الحياة والدين أو الدنيا والدين .

وقد ارتبط النمو اللغوي في اللغة العربية نحو بلوغ غايات البيان وقوة التعبير ، ارتبط ذلك بأمور تعيش في حياتهم الدينية ، وحياتهم الدنيوية ، فكل مايتصل بالدين من قيم رفيعة ومثل سامية ، وعقيدة صميمة ، التزام بالحلال والحرام ، وأداء للفرائض وغير ذلك من أمور يقتضيها الايمان يأمر بها الدين . كل ذلك دفع بالعربى الى السمو بلغته والدنوبها نحو الكمال . بل كان اسم (العربي) ذا دلالة ينبغي أن نتنبه اليها كما تنبه العرب حين سموا من لاينطق بلغتهم (عجما) أولئك الذين لم يظهر فيهم رسول ولاكتاب ولادين . قال تعالى :**(كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)** فصلت / ٣ ، وكما تضمنه العقل العربي من ميل الى الايجاز في كلامه حتى ليصل الى الحكمة البليغة والمثل الصادق ، والخبر ، والقصيدة ،

والرسالة ومن أجاد فهم كلمة (الجاهلية) أهتدي الى الصواب ، فقد وصف الانسان بأنه كما قال تعالى : **(كان ظلوما جهولا)** الأحزاب /٧٢ وغيرها من الآيات التى تورد تلك الكلمة (أنظر آيات ٢٣ : الاحقاف ، ٥٥ : النحل ، ٢٦ : الفتح) والكلمة في معناها فقدان الحلم والتجبر والجهل الخلقى وحمية الغضب .

كذلك كلمة (الأمية) اذ فهمها أعداء العرب على أنها بمعنى جهل القراءة والكتابة وتجاهلوا أن المصاحف الأولى دونت في عهد النبى صلى الله عليه وسلم وفي عهود أبي بكر وعمر وعثمان وكان العرب يعرفون القراءة والكتابة منذ ثلاثة قرون تقريبا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتتحدث المراجع عن الكتاتيب التي يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة في عصر البعثة ، وكما تشير الى مجال الثقافة حيث تدارس الاخبار والاشعار والانساب ، وقد أشار القرآن الكريم الى شيء كثير من ذلك ، قال تعالى : **(وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)** : الفرقان / ٥ وقال تعالى : على لسان المشركين : **(ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)** : الاسراء / ٩٣ . أما معنى الامية وصفا للرسول صلى الله عليه وسلم ولقومه فانها تعني أن الاميين (هم الامة التي لها طريقة وشريعة ودين تخالف سائر الاديان وهي تنتظر من الله كتابا مصدقا لدينها) .

وليس من المعقول ان يصفهم الله بأنهم المختارون لانه اجتباهم ويكونوا جاهلين ، وقد شهد الزمن بذلك فاخترع العرب حروف الهجاء ، ولهذا سميت الهجائية الفا باء .

وما وقفنا عليه هنا وفي الصفحات السابقة يرد على زعم بعض المستشرقين الذين يقللون من شأن اللغة العربية ، ويحجبون بعض ميزاتها ، ومنهم — على سبيل المثال — المستشرق الفرنسي « جاك بيرك » الذي يرى اللغة العربية لغة هبوط على الحياة لا لغة صدور عنها ومن هنا يجعلها لغة فكرية أو ذهنية، ويرى أن ذلك أحد أسباب ثبات شكلها وتركيبها وهو رأي يرفضه الواقع اللغوي للغتنا ، فلا يصعب على لغة اتسعت لاستيعاب أمور الشرائع والنظم التي يطلبها الدين، لا يصعب على تلك اللغة أن تصدر عن الحياة وتعبر عنها ، كما لا يستساغ لعقل أن يجهل خصائصها الفنية التي تتعلق بالشكل أو المضمون .

وكون اللغة العربية دينية ودنيوية يرشد اليه قوله تعالى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) آل عمران / ١١٠

فقد اجتاز الاسلام ساحة واسعة المدي خصبة التربية من ساحات التاريخ وطبعها بطابع متألق وهاج ملأجوانب الدنيا خيرا وعطاء ، اذ تمت عملية اخصاب ضخمة في مراكز ثقافية متعددة مابين دمشق والقاهرة والقيروان والأندلس وصقلية رسا فيها التاريخ على ضفاف العالم ليبصر مجدا ، ويبارك حضارة أسس دعائمها المسلمون العرب ، ايمانا منهم بامتداد علاقات الحياة ، وبأن

من أقدس واجبات كل جيل ،أن يورث من يليه من اجيال اعمالا تنبض بالحق والخير والجمال ، ذلك أن مجد الأمم يكمن فيمالها من آثارفكرية وروحية ، تنتقل ميراثا باقيا من جيل الدنيا وحالاتها ومطالبها واستيعاب الى جيل ، ولهذا غدت الحضارة الاسلامية العربية يومئذ مدرسة الدنيا كلها وملتقي حضارات جمة : شرقية وغربية ، ومزدحم الوان شتى من الفنون فحققت بذلك شيئا كثيرا مما طمحت اليه الأمم والشعوب في ميدان التقدم ، وكل شيء صدر عنها كان ممثلا لخصيصة من الخصائص الانسانية ، ومنميا لرصيد الحضارة البشرية ، وغدت اغنية عذبة في أفواه المنصف من المؤرخين ، وغصة محرقة في أفواه المتعصبين الذين حرصوا على أغفال دور حضارة العرب في عصر الاحياء الأوربي ، وانارة العصور الوسطى التى سميت وقتا ما بالمظلمة واذا مابدت لهم الحقيقة الناصعة ، تجلو لدور الانسان الخالد الذي حملته حضارة الاسلام في صقلية والاندلس وغيرها عدة قرون حطمت فيها الجهل والجمود ، وبددت سجف الظلمة وعروش الاستبداد — اذا مابدا لهم ذلك ردوا المؤثرات الى الحضارة الرومانية ، والأقبح من ذلك أن يعتبروا العرب ضمن الأجناس المتأخرة البربرية ، التي شوهت مدنية الرومان !!! . وكان الزمن كفيلا أن يقنع هؤلاء بأن الحضارة التى بددت ظلمات العصور الوسطى بثتها أرواح وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات تقديرا منها للحقيقة التى تقرر أن ثمرات التفكير البشري ملك للانسانية .

يقول جوستاف لوبون : (ان ماحققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة .. وأنهم انشأوا دولة تعد من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ، وانهم مدنوا أوربا ثقافة واخلاقا ، وان الأمم التي سمت سمو العرب ، وهبطت هبوطهم نادرة ، وانه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالا بارزا لتاثير العوامل التى تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها) .

ويقول : (ولم يتقيد العرب في دراسة الحضارات السابقة لهم بمثل التقاليد التى اثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل . بل كانت هذه الحرية من أسباب تقدمهم السريع) .

ونفهم مما تقدم ، ومما عرضه لوبون . أن ذلك كله لايتم الا عن طريق لغة سديدة الخطوات غنية العطاء مثل اللغة العربية ، تلك اللغة التى جذبت اليها أمثال فردريك الثاني، وجيرارد الكريمونى ، والأمير يوجين البلرمي « الذي لقب بالفيلسوف لسعة اطلاعه وارستيبووزير جيوم الأول » وغيرهم ممن عكفوا على دراسة تراث اللغة العربية فترجم يوجين من العربية الى اللاتينية المجسطى ، والبصريات لبطليموس، ووضع نصا لاتينيا لكتاب « العين » وشجع فردريك ترجمة مؤلفات أرسطو ، وابن رشد ، وجعل من جامعة « نابلى » اكاديمية لنقل العلوم العربية الى أوربا ،وترجم جيرارد الكريموني كتبا عربية عديدة منها كتاب ابن سينا في الطب ومؤلفات الكندي ، واكثر من سبعين كتابا عربيا في شتى الفنون ، واطلع شاعر ايطاليا « دانتى » على التراث العربى

وحاكاه بفضل أستاذه « بروفيمو لاتينى » الذى كان يجيد العربية فظهر التأثير واضحا في (الكوميديا الالهية) التى تعتمد على قصص الاسراء والمعراج ، ورحل « اديلارد أوف باث » الانجليزي الى صقلية ليترجم الكتب الرياضية والعلمية ، وترجم قسطنطين رئيس مدرسة الطب في (سالرنو) الى اللاتينية أهم مؤلفات العرب الطبية هاهو « سارتون »يقرر في (مقدمة تاريخ العلم) : « بيان تفوق اللغة العربية ، فجميع الاكتشافات الجديدة والآراء الحديثة نشرت بالعربية ، التى كانت آنذاك الوسيلة للتقدم العلمي ويقرر : أن الانتقال من الحضارات الأخرى الى المدنية العربية الاسلامية يكاد يشبه الانتقال من الظل الى الشمس المشرقة ومن عالم ناعس الى آخر يتفجر بالنشاط ويقرر أن العربية كانت لغة العلم فيما بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي .

وهكذا بلغ الأمر بتلك اللغة الدينية والدنيوية أن صار محتوما على كل من يرغب في الالمام بثقافة عصره أن يجيد اللغة العربية وصار « روجر » يكتب بها مراسيمه الى جانب اللاتينيه واليونانية ،وعلى ذلك سار خلفاؤه فدرس وليم الثاني اللغة العربية وحملت آثار براءات ملوك النورمان اللغة العربية ، وكذلك النقود التى كانت تحمل صيغة : (لا اله الا الله) ، وشهدت الآثار بذلك ، ففى نورمبرج رداء حريري كان يلبسه ملوك صقلية مطرز بكتابات عربية كوفية ، وكما عاشت من قبل العربية في الآثار وعاشت من قبل في لغة الدراسة عاشت في بعض الألفاظ الصقلية والايطالية ، وماتزال بعض الأماكن في الأندلس وصقلية تحمل أسماء عربية لاسيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع ، وقد دخلت تلك الألفاظ اللغة الايطالية بطريق المدنية كما يقرر « رينالدي » بل يذهب الى وجود بعضها في العامية الايطالية،وفي بعض المعاجم الايطالية، وظهرب اللغة العربية ابان حكم العرب في الأندلس وصقلية ــ ظهرت في الألقاب مثل أمير الأمراء ، والقائد وقد أصدر الدكتور « وينر » مجلدين ضخمين رد فيهما الكلمات الأوربية الى أصل عربي .

ويطول بنا المقام لو أخذنا نعرض لمظاهر التفوق الحضاري وبخاصة مما يتصل باللغة العربية في عصور التفوق الحضاري في عصر المأمون ، وفي مراكز الثقافة الاسلامية المختلفة ولو أحصينا الألفاظ العلمية والرياضية ذات الأصل العربي ، وما أحلى الاستماع الى قول « بترارك » .

« ياللعجب . استطاع«شيشرون» أن ينبغ في الخطابة بعد «ديموستين» واستطاع « فرجيل » أن ينبغ في قرض الشعر بعد « هومر » فهل قدر علينا الا نكتب بعد العرب ؟ . لقد أدركنا الاغريق وجميع الشعوب وسبقناها في بعض الأحيان ماعدا العرب . فيا للحماقة وياللجهل وياللعبقرية الجامدة .

فهل يجوز لضيقي الأفق أن يتهموا تلك اللغة التي أسدت للانسانية كل هذا الثراء بأنها لغة دينية لالغة دنيوية هل قدمت لغةفي الأرض عطاء حضاريا

متعددا كتلك اللغة ؟ .

لعلى لا أبالغ اذا قلت أن كل ادعاء وافتراء في هذا المجال ناشيء عن تعصب أو ضيق أفق ، فكيف يتسنى لمن اطلع على حقائق التاريخ الحضاري أن يذهب مذهب أمثال « انطوان مطر »في مقاله : (اللغة العربية والظروف الحاضرة وماينتظر تحقيقه من آمال في مستقبل عالم المتكلمين بها) الذي نشر بالعدد الخامس والعشرين في ٥ من مايو سنة ١٩٧٤ من مجلة ديوجين-مصباح الفكر التى تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاتها ، وقد ترجم المقال على أدهم .

وبادىء ذي بدء نقرر — مطمئنين — أن البحث لايقدم جديدا ويقتصر على عرض وتلخيص آراء سبق عرضها وسبق دحضها . يري الباحث — بالرغم من الحقائق التاريخية الحضارية — أن اللغة العربية ليست لغة حديثة ، وأنها بحالتها تلك لاتصلح وسيلة لثقافة تقدمية انسانية أو تقنية ، ويري أن من الاسباب التى تجعلها غير صالحة للاستعمال أن لها طابعا دينيا ، وان العرب لايملكون لغة قوية علمانية ، وان العربية مرتبطة بالقديم فكأنها تعبر عن التاريخ وأن العالم العربي متخلف وأن اللغة العربية فقيرة في المصطلحات العلمية مع غناها بالمترادفات ، فهى غنية في موضوعات ، فقيرة في أخري ، وان المجتمع يكتب بها ولايتحدث ، فتعددت لهجاته ، كما يطعن في منطق اللغة ويشير الى احصائية اليونسكو بنسبة الانتاج العلمى في كل من انجلترا وفرنسا وغيرهما من دول أوربا ، ويبين كيف أن الانتاج العربى لاقيمة له . كما يبين أن مايدرسه الطالب من قدر لغوي لايدنيه من حاضره ، ويرجع التجديد اللغوي الى جهد الجماهير لالجهد المجامع اللغوية الرسمية الثلاثة (يقصد ما في القاهرة وبغداد ودمشق)ويدعو الى لغة علمانية سهلة التداول .

وقد ناقش آراء ذلك الكاتب كثيرون نذكر منهم — على سبيل المثال — الأستاذ أحمد مرسى سالم(مع القرآن الكريم — العدد الرابع — المقاولون العرب ص ٤٥٩ ، والأستاذ محمد شوقى أمين (مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣٣ ص ٨٠) .

والحق أن اللغة العربية ظلت على مدي أربعة عشر قرنا متصلة العري بالدين كما هى متصلة العري بالدنيا ، وبخاصة في عصور الازدهار الأولى وكانت الى جوار ذلك كله لغة قوية عصرية علمانية حية متجددة . واذا كانت قد حققت ذلك بتفوق في العصور القديمة ،فهىجديرة بتحقيق ذلك في عصورها الحديثة وبخاصة وهى لاتكف عن التجديد والتطور ، ولاتضن بسخائها بالمترادفات ، ووفائها في الحروف ، فمعظم اللغات السامية — التىتنتمي لها لغتنا — لاتتجاوز حروفها اثنين وعشرين حرفا مجموعة وفق الحروف التالية : أبجد ، هوز ،حطي ، كلمن، سعفص ، قرشت . أما لغتنا فتزيد عليها ستة حروف هى : تخذ ، ضظغ وهى تسمى الروادف لأنها تأتى تالية في الترتيب للحروف السابقة ، وتسمى الأبجدية نسبة الى اول كلمة بها ، وقد رتبت في العربية ترتيبا هجائيا — كما هو معروف — للغرض التعليمي .